مركز الثقل الجديد في العمران

انتقاله من الحرية الى المال

خلاصة خطبة للدكتور بطلر رئيس جامعة كولومبيا

الموضوع الذي اريد ان اتناولهُ بالبحث في هذا الخطاب حافل بالمسائل التي تثير اختلافاً حاداً في الرأي حتى ليصعب كثيراً على الباحث ان يهرب عن وجهة خاصة منها من غير ان يتصدى لهُ من يناقضهُ فيها . ولكن الحقيقة الاساسية التي اودُّ توجيه الانظار اليها هي ان مركز الثقل في شؤون العمران آخذ في الانتقال من نقطة حلَّ فيها اربعة قرون متوالية من مطلع القرن الخامس عشر الى نقطة قد يحلُّ فيها في القرون الاربعة القادمة

واذا توخينا الصراحة في وصف هذا التحوّل قلنا ان هذا المركز آخذ في الانتقال من السياسة الى الاقتصاد ومن الاعتبارات التي كانت تمنى باشكال الحكومات وتأييد الحرية الفردية والمحافظة عليها الى اعتبارات غرضها الاول انتاج الثروة وتوزيعها واتلافها . ولا اريد ان ارمي الى ان الاعتبارات الثانية كانت ناقصة في القرون الاربعة الغابرة ولا انَّ الاعتبارات الاولى ستعدم من يعنى بها في الاربعة المقبلة . انما اريد ان اقول ان المكانة العليا التي كانت للسياسة قد انتزعها منها الاقتصاد . اما النتائج والمقدمات التي قد تسفر عن هذا التحول فلا يتعذر تبيُّنها وتعليلها ولو تعليلاً ناقصاً

انا مستعدٌّ ان اعيد هنا ما سبق وصرَّحت بهِ في لندن سنة ١٩٢٧ لما اعربت عن رأي بانا لا نجد اليوم في امم الارض شاعراً عظيماً ولا فيلسوفاً عظيماً ولا زعيماً دينيًّا عظيماً . ان قوى الناس العقلية وضروب اهتمامهم قد انتقلت من ميدان الى ميدان . مات غوته سنة ١٨٣٢ وفكتور هوغو سنة ١٨٨٥ وبروتنغ ١٨٨٩ وتنسن ١٨٩٢ . اي شاعر من شعراء العصر يصح ان يوضع في مرتبتهم ؟ قضى هيجل آخر حامل للواء افلاطون وارسطوطاليس وتوما الاكويني وديكارت وكانت سنة ١٨٣١ . اين نقع على خلفهِ اليوم ؟ سطا الردى على شيلر ماخر الذي وضع في طبقة واحدة مع اورفن وكلفن سنة ١٨٣٤ وذهبت روح لاكوردير الى ربها سنة ١٨٦١ — لاكوردير الذي كان شاتوبريون وهوغو

وموتالامير يصغون اليه بدهشة واعجاب وحلّ في الاكادمية خلفاً لدوتوكفيل — وانتقل الكردينال نيومن الى رحمة ربه سنة ١٨٩٠ وتوفي جوزف كارد اكنز فلاسفة الدين تعمقاً سنة ١٨٩٨ فمن حلّ محلهم ؟ قدنستطيع ان نقيم الحجة على ان الفيلسوف بنديتو كروتشي الذي ولد سنة ١٨٦٦ والشاعر رديرد كبلنغ الذي ولد سنة ١٨٦٥ يرتدون ازدية الفلاسفة والشعراء الذاهبين . ولكن ايس صوت هذين صوتاً داوياً في برية مقفرة !

***

اذا طوينا بالخيال تاريخ القرون الى مطلع العهد الحديث في عمران البشر وجدنا النشاط العقلي والكفاءة العقلية والتقلق الثقلي في العصور الوسطى تمهد الطريق للحوادث الفكرية والسياسية التي سيطرت على العالم مدى اربعة قرون وكونت التاريخ ووجّهته في الوجهة التي اتخذها. والركن الاساسي الذي قامت عليه هذه الحوادث كان الاعتراف بقيمة الفرد وحقه بعلمه وايمانه وحريته في الاعراب عن رأيه والقيام بالعمل الذي يستهويه وقضاء حياته كما يشاء وتكوين فكره والاعراب عنها يرى وجعله نفسهُ مركزاً لعالمه الخاص — فكانت النتيجة التي اسفرت عنها هذه الآراء والميول انفجار القوى الشخصية وظهور الشخصيات الكبيرة في كل ميادين الفكر. وهكذا تمّ للعمران ظهور الآيات الخالدة في الشعر والآداب والتصوير والبناء والنقش والنحت والفلسفة والتفكير السياسي . ولو اردنا التوسع في هذا البحث لاعوزنا الوقت والمدى ولكن الخلاصة يجب ان تكون معروفة لدى كل الرجال المثقفين والنساء المثقفات

اما المنشآت السياسية فتأخرت عن التحوّل الذي تقتضيه الآراء الجديدة والمثل الجديدة. لذلك قطع الشعر والادب والفن والفلسفة والفلسفة الدينية شوطاً بعيداً على طريق التجدد قبلما ازيلت القمائم عن الحرية الشخصية في ميادين الاجتماع والحياة العامة . تلك القمائم التي فرضتها طبقات الحكام في عهود الاستبداد. على ان اصواتاً حارة كانت ترتفع في دياجير الظلمة من حين الى آخر تنطق بالشعر آناً وبالنثر آناً آخر فتضرب على الوتر الحقيقي في عهود الارتقاء السياسي. بين هذا الاصوات الصارخة كان صوت ملتن الشاعر الانكليزي اعلاها واقواها . وكان فولتر الرجل الذي نقل هذه الرسالة الى فرنسا في كتابه « رسائل عن الانكليز ». على ان الفرض لم يتحقق الا عن طريق الثورة وكلّ ثورة كانت تستمد وحيها وارشادها من الآداب. فخطا الانكليز الخطوات الاولى في هذا السبيل وما عملوه كان منطبقاً كل الانطباق على تعاليم ملتن وادلته . وفي القرن التالي شبّت ثورتا الولايات المتحدة الاميركية وفرنسا وتلاهما استقلال الشعوب اللاتينية في جنوب اميركا واخيراً وقع الانقلاب الثوري في اوربا سنة ١٨٤٨ فاسفر عن نتائج لا يستطيع الناظر العجلان ان يدرك مدى خطورتها

فلما تمّ للانسان الحديث انشاء الانظمة السياسية التي تتفق مع رأيه في الحرية المدنية والمحافظة عليها تحمد الى السكون والاستقرار بعد القلق والاضطراب مكتفياً بما تمّ له . ولعله تناضى او عزب عن باله ان الانظمة مهما ابدع في تكوينها لا تحافظ بنفسها على نفسها وان الطبيعة البشرية تظل هي هي بقيودها وامانيها وتحاذلها وتقلبها سواء كان صاحبها مستبداً في ظل حاكم مستبد او حرًّا في جمهورية دمقراطية او تابعاً لامير من امراء الاقطاع . فالواضح ان الواجب على الانسان كان يقضي باصلاح هذه الانظمة السياسية ومحاولة السموّ بها الى مرتبة الكمال واعداد نفسه لها بالتثقيف والتهذيب

ولكن في اواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر اتسع نطاق المعرفة بالقوى الطبيعية وتعدّدت وسائل السيطرة عليها فتحولت اساليب المعيشة وطرق العمل وانقلبت طرائق التفكير الظاهر والباطن . واذا بحثنا عن تاريخ لمطلع العهد الذي اخذت فيه الاعتبارات الاقتصادية تسيطر على شؤون العمران فسنة ١٧٧٦ هي ذلك التاريخ . في تلك السنة نشر ادم سمث كتابه في الاقتصاد المدعو « ثروة الامم » وتخلى ترجوعن خدمة ملك فرنسا لويس الخامس عشر بعد ما كتب كتابه العظيم الذي موضوعه « تأملات في انتاج الثروات وتوزيعها » . اننا لا نجد تحليلاً للحياة الاقتصادية بعد ارسطو اكمل من التحليل الذي نقع عليه في هذين الكتابين

***

قد يكون من قبيل الاتفاق حدوث الثورة الصناعية في الزمن الذي كتبت فيه هذه الكتب العظيمة وقد لا يكون . بل قد يكون الباعث عليها عاملاً اعظم وابعد غوراً من الاتفاق . فالكيمياء كانت قد بُعثت من كراها والفلسفة الطبيعية صارت تعنى بأعوص المسائل الطبيعية وتطبيقها . واصبحت اسماء اركريت وكرومتن مستنبطي آلة الغزل ووط مستنبط الآلة البخارية وستيفنسن مستنبط القاطرة اسماء محبب حسابها . وحلّت الآلات محلّ الصناعة اليدوية واخرجت منتجاتُ انامل منتجات الصناعة البيتية من الميدان . واخذ تيار البشرية يتدفق الى المدن . وبدأ نفر الالوف والوف الالوف من بني البشر يتغيرُ تغيراً بعيد الغور كما تغيّرت البيئة التي يعيشون فيها والاعمال التي يتعاطونها . وكانت المواصلات بطيئة في ارتقائها تأخرت عن اللحاق بالنظام العمراني الجديد . على ان الآلة البخارية اتقنت واستنبط بعدها التيار الكهربائي ومن هذين المصدرين تدفقت وسائل المواصلات العصرية التي طوقت الارض تطويقاً لم يجرؤ على تصوّره خيال شاعر . ومتى ادركنا ان الهواء اصبح طريقاً سلطانية او كاد وان البحار على سعتها لا تحول دون اتقان الصوت البشري من بلاد الى بلاد عرفنا اننا نعيش في عالم جديد سواء ادركنا مقتضياته ام لم ندركها

ولنا كلَّ يوم برهان جديد على ان العناية بالشؤون الاقتصادية اخذت تحلُّ مباشرة و بوساطة محلَّ عناية البشر القديمة بالشؤون السياسية والعقلية . لاريب في ان السياسة مرتبطة كل الارتباط بالاقتصاد ولكن الامر الواضح لكل ذي عينين ان العنصر الاقتصادي في عصرنا هذا لا العنصر السياسي هو المسيطر على شؤون الحياة والفكر في كل انحاء الارض.

فكانت النتيجة الخطيرة التي اسفر عنها هذا الانقلاب ان حلَّ « المال وجمع المال » في عقول الناس وافكارهم محلَّ « الحرية وتأييد الحرية وحفظ الحرية». وهذا الانتقال يعلل اكمل تعليل انحطاط المذاهب السياسية الحرة والاحزاب التي تدين بها في اوربا واميركا. « انك تضجرني حين تتحدث عن الحرية ». هذه عبارة لاحد خريجي جامعة اكسفرد سابقاً ومن اعضاء البرلمان الانكليزي الآن وما كان كاذباً لانهُ اعرب عمَّا يجول في صدر جيله من المعاني . ان مركز الثقل في نظر هذا الرجل والوف الالوف من ابناء جيله قد انتقل من سياسة المبدإ الى سياسة المنفعة ومن العناية بمشكلات الحرية الى العناية بمشكلات الثروة

***

[ثم تناول الرئيس الموضوعات الناشئة عن هذا الانتقال وأثرها في السلم والعمران مما لا يتسع لهُ هذا المقام كمسألة تفسير التاريخ الاقتصادي وأثر الضرائب العالية على الواردات وتحقيق حلم « ممالك اوربا المتحدة » وعلاقة ذلك بالامبراطورية البريطانية] ثم ختم خطبته بقوله:

من الواضح ان كل هذه المشكلات والاعتبارات الخطيرة نشأت عن انتقال مركز الثقل المتقدم الذكر وصحبتهُ . فلو ان الناس في هذا العصر يعنون في مقدمة ما يعنون بهِ بشكل الأنظمة السياسية والحكومات النيابية وتأييد الحرية المدنية — لو انهم يهتمون في مقدمة ما يهتمون بهِ بالشعر والفلسفة والحياة الروحية لكان اعظم الاحياء وأكبر الزعماء المعاصرين هم الشعراء والفلاسفة والزعماء الروحيون والمصلحون . اما انهم ليسوا كذلك فدليل على روح العصر

وانا اعتقد اعتقاداً راسخاً ان لا تناقض على الاطلاق بين مركزي الثقل المذكورين. ويجب ان لا نسمح لاحدى هاتين القوتين ولا للاثنتين مجتمعتين ان تسيطرا على حياة الشعوب سيطرة تخلق الروح القومية التي تنظر نظراً ضيقاً مبنيًّا على الخوف والحسد. يجب ان لا نضن بمجهد ما للدفاع عن الحرية من جهة وانتاج الثروة من جهة اخرى وتوزيعها توزيعاً عادلاً . وان نجعل هذا الانتاج والتوزيع سبيلاً لبناء الحياة الادبية في الافراد والامم وتقريب الشعوب بعضها من بعض وربطها برباط من الصداقة والتفاهم والتعاون لتحقيق الاغراض العليا